مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 13/ العدد: 12(2025)، ص: 693 -704

نسق المقاومة وتجلياته في نص "الرحلة" للروائية والناقدة "رضوى عاشور"

The Pattern of Resistance and Its Manifestations in the Text "El-Rihla" by the Novelist and Critic "Radwa Ashour".

بلعوجة لامية[1]

[1] جامعة الجزائر02 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،

lamia.belaoudja@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/22 تاريخ القبول: 2025/04/26 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية مقاربة نص للناقدة والروائية المصرية رضوى عاشور الموسوم بـ"الرحلة"، هذا النص الذي لا تسجل فيه الكاتبة وقائع رحلتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال مقتضيات نيل شهادة الدكتوراه فقط، بل هو نص يحتل فيه الموقف من الآخر مكانة مركزية، وكان الموقف قوامه المقاومة باعتبارها نسقا مركزيا يبنى عليه النص في ظل أنّ الرحلة في العصر الحديث لم تعد تركز على تزويد القارئ بالمعرفة عن الآخر، لأنّ هذا الدور تولّته وسائل أخرى.

ولأنّ ثنائية الأنا والآخر من الثنائيات التي يهتم بها حقل النقد الثقافي، فإننا حاولنا الاستنارة ببعض مفاهيم هذا الحقل لمقاربة المدونة محل الدراسة، لاسيما مفهوم النسق، الأنا والآخر، الخطاب المضاد، الرد بالكتابة وغيرها...

وقد خلصنا إلى أنّ نص "الرحلة" قد انبنى على نسق مركزي هو نسق المقاومة، الذي ضمّ تحته مجموعة من الأنساق الفرعية أهمها: التوعّي بإمبريالية أمريكا، نسق المعارض السياسي، ونسق الأنثى المتمردة، وكان الجامع بين هذه الأنساق هو مقاومة الهيمنة بكلّ أشكالها.

كلمات مفتاحية: أدب الرحلة، رضوى عاشور، الأنا والآخر، النقد الثقافي، نسق المقاومة.

Abstract:

In this research paper, we attempt to approach a text by the Egyptian critic and novelist Radwa Ashour, titled "El-Rihla." This text does not merely document the author's travels to the United States to fulfill the requirements for obtaining a Ph.D.; rather, it is a text in which the stance toward the "Other" occupies a central position. This stance is fundamentally rooted in resistance, serving as a central framework upon which the text is constructed. This is particularly significant given that modern travel narratives no longer focus solely on providing the reader with knowledge about the "Other," as this role has been taken over by other means.

Since the duality of the "Self" and the "Other" is one of the key binaries addressed in the field of cultural criticism, we seek to draw on some of the concepts from this field to approach the text under study. These include concepts such as framework, the Self and the

Other, counter-discourse, writing back, and others. We conclude that the text of "El-Rihla" is built on a central framework of resistance, which encompasses a set of sub-frameworks, the most important of which are: resistance to American imperialism, the framework of political opposition, and the framework of the rebellious female. What unites these frameworks is the resistance to domination in all its forms.

Keywords: Travel literature, Radwa Ashour, Self and Other, Cultural criticism, Framework of resistance.

***المؤلف المرسل:** لامية بلعوجة

1. مقدمة

لقد شكل فعل الارتحال سلوكا وضرورة صاحبت الإنسان عبر تاريخ الإنسانية الممتد منذ القديم، لضرورات الحياة الأساسية في البدء (كرحلات الصيد مثلا)، ثمّ ازدادت هذه الضرورات وتنوعت مع العمران والحضرات القديمة، وتعددت دوافع الارتحال بين دينية (الرحلات الحجازية مثلا)، أو جغرافية استكشافية، أو علمية معرفية وغيرها، كما تعددت طبائع وشخصيات الرحالة وخلفياتهم الثقافية والدينية والمعرفية. وقد أدى تدوين هذه الرحلات إلى مراكمة كمّ كبير من الكتابات التي غدت تشكّلُ تراثًا أدبيًّا متأصلاً، يدعو بإلحاح إلى تفعيل مختلف آليات النقد والمساءلة، وذلك بغية معاينة فضاءاته، واستكناه عوالمه المغرية والمنفتحة على عناصر خطابية ولغويّة متعدّدة.

ولقد عرف العصر الحديث اهتماما متزايدا من النقاد والدارسين بالنصّ الرّحلي، فحظي باهتمامهم، وراحوا يقاربونه كلّ من زاوية اهتمامه ونظره، لكن يبقى المنعطف الأهمّ الذي يشكلُ فارقا في مقاربة النص الرّحلي هو ذلك الذي قام به عدد من الدارسين المتأثرين بالمدرسة البنيوية والشكلانيين الرّوس بنقل الاهتمام من مضامين الرّحلة إلى الاشتغال بسؤال أدبيتها، وطبيعة خطابها، والبحث في مغامرة الكتابة بالكشف عن مختلف المكوّنات السرديّة واللغويّة.

إنّ اتجاه الدرس النقدي هذه الوجهة من خلال تركيز الاهتمام على بنية النص الرّحلي وأدبيته لم يكن فقط لأنّ "الرحلة كانت تمثل نصا بدون هويّة، مائعا في مجموعة من النصوص السابقة واللاحقة، وإنّما أيضا لكون الأبحاث التي تناولت الرحلة من زاوية الموضوع، أو انشغلت بالبحث في البعدين التاريخي والجغرافي لها لم تعد -على أهميّتها- تستجيب للأسئلة المعقدة التي ما فتئ الشرط الخاص لهذا الشكل التعبيري يطرحها على القراء والدارسين، بالنظر لما يميّز بنيته من مرونة وانفتاح، وقدرة على امتصاص نصوص مختلفة، بحيث يحاورها الرحالة أو يحاكيها" (الخضراوي، 2019.)، وبذلك أصبح هذا النوع من المقاربات قاصرا عن فهم خصوصية هذا الجنس الأدبي الذي استند في افتكاك مشروعيته الأجناسية إلى تراث أدبي واسع يشكل فيه السفر حجر الزاوية، وهذا ما دفع بالنقاد والدارسين لهذا الجنس الأدبي نحو العناية بخصوصية الكتابة في أدب الرحلة، والانكباب على دراسة البنية المهيمنة فيه، وهي بنية السّفر، التي تلقي بظلالها على مجموع مكونات الرحلة السردية والتمثيلية والدلالية.

لم تكن المقاربات البنيوية المحايثة هي الوحيدة التي استقطبت النص الرحلي إلى فضاء اهتمامها، كاشفة عن تشكلاته البنيوية في مختلف مستوياتها، السردية والدلالية، بل وجدت الدراسات الثقافية والنقد الثقافي في الرحلات مادة مغرية للدراسة والتمحيص من منظورها، خاصّة وأن النص الرّحلي يُبئِر ثنائية الأنا والآخر بامتياز، ويطرح انشغالات هامّة حول أنظمة التمثيل السردي والثقافي، والتي تُحصّلُ مشروعيتها من ماهية النص الرّحلي نفسه، فالخطاب حول الآخر هو أساسا خطاب يجلّي الاختلاف، وبالتالي فالتساؤل فيه حول الأنا ضروري أيضا، خاصة وأنّ الرحالة يخوض فيه سجالا بين ثقافته وثقافة الآخر المرتحل إليه، بين الأنظمة الفكرية والوجدانية للذات والأنظمة المضادّة، "عبر ما تتيحه الرحلة من معاينة المختلف الذي يدفع إلى فهم الذات ومعاينتها ومعرفتها، فينشأ من ذلك وعي بالهوية والاختلاف" (عبدالله، 2024)، وتكون المحصّلة تثاقفا يغني تجربة الرحالة على المستويين الإنساني والثقافي.

لقد وجه النقد الثقافي بوصلة الاهتمام في النصوص الأدبية بشكل عام –والنص الرحلي أحدها- لا على التشكيل الجمالي لها، وإنّما على الأنساق المضمرة التي تمررها هذه النصوص عبره، فيما يصطلح على تسميته بحيل الثقافة، وهذا تأسيسا على أفكار رائد النقد الثقافي "إدوارد سعيد"* في كتابه "الاستشراق"، الذي بيّن من خلاله أنّ الغرب قد استخدم الثقافة –والسرد على وجه خاص- في تقديم تمثيلات زائفة عن الشرق ومشوهة لحقيقته، وهذا بغية تأكيد فوقيته منطلقا من قناعة المركزية الأوروبية؛ لكن "إدوارد سعيد" أرسى أيضا في كتابه الثاني "الثقافة والامبريالية" مفهوما مهما ألا وهو المقاومة الثقافية التي ينبغي لسكان المستعمرات التي عانت من عبء التجربة الاستعمارية تبنّيها، وهي سيرورة يتمّ من خلالها استعادة الكلمة، وتحرير الصوت المصادَر من قبل التمثيلات الاستعمارية والامبريالية بالأدوات الثقافية نفسها، وباتجاه مضاد للسّرد.

في هذا السياق من الكتابات يندرج نص الرحلة للروائية والناقدة المصرية "رضوى عاشور"**، إذ يتخذ من تيمة السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للبحث الأكاديمي والتحصيل المعرفي لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع الأدب الأفروأمريكي موضوعا له، لذلك اخترنا أن يكون نصّها الموسوم بـ: "الرحلة" مدوّنة لهذه الورقة البحثية، وأن يكون البحث عن نسق المقاومة وتجلياته فيه تحديدا إشكالية رئيسية نحاول الإجابة عنها، وهي الإشكالية التي يمكن صياغتها على النحو التالي: كيف تجلى نسق المقاومة في نص "الرحلة" للروائية والناقدة المصرية "رضوى عاشور"؟.

وانبثقت عن هذه الإشكالية إشكالات فرعية تتظافر كلّها بشكل من متكامل للإجابة عن الإشكالية الرئيسية لعلّ أهمها:

---

*– **إدوارد سعيد:** (01نوفمبر 1935 في القدس- 25سبتمبر 2003 في نيويورك)، منظر أدبي وناقد فلسطيني أمريكي، واحد من أهم مؤسسي ورواد الدراسات ما بعد الكولونيالية، وأحد أشد المدافعين عن القضية الفلسطينية، كان أستاذا للغة الإنجليزية والأدب المقارن بجامعة كولومبيا، ومن أهم مؤلفاته في حقل النقد الأدبي: الاستشراق، الثقافة والامبريالية، الناقد والسلطة وغيرها.

- **رضوى عاشور: (26 ماي 1946- 30 نوفمبر 2014)، قاصة وروائية وناقدة أدبية مصرية، أستاذة الأدب المقارن بجامعة عين الشمس، زوجة الشاعر الفلسطيني مريد البرغوتي، لها العديد من الأعمال الأدبية والنقدية أهمها: (الرحلة، الطنطورية، ثلاثية غرناطة، يوميات السيدة راء، الطريق إلى الخيمة الأخرى، التابع ينهض، الحداثة الممتنة)، كما نالت العديد من الجوائز الأدبية داخل وخارج مصر، فقدتها الساحة الأدبية والأكاديمية في 30 نوفمبر 2014 بعد صراع مع المرض الخبيث.

- ما النسق وما المقاومة؟
- ماهي الخصوصيات الطارئة على الرحلة في العصر الحديث بالنظر إلى تطور الحياة والحضارة؟
- ماهو تأثير السياق التاريخي لكتابة نص "الرحلة" في تبني خيار المقاومة لدى "رضوى عاشور"؟
- ماهي تجليات نسق المقاومة في نص "الرحلة" وماهي الأنساق الفرعية المنضوية تحت هذا النسق العام؟.

2. في مفهوم النسق ونسق المقاومة:

يعرّف الناقد المغربي "بوشعيب الساوري" النسق بأنّه: "عبارة عن مجموعة من العناصر منظمة تنظيما محكما ومترابطة، والتي تشكل عمل وسلوك هذا الكل النسقي، كما أنّ الكلّ نسق مشكل من عناصر وأجزاء تنتظم فيما بينها، ويتضمن هذا العمل سلسلة من القواعد والمعايير والشفرات والخطوات التي تكون بمثابة نماذج عمله، انطلاقا من علاقات تداخل بين العناصر" (الساوري، 2007، الصفحات 76- 77)، أي أنّ النسق مكوّن من مجموعة من العناصر المتضمّنة لقواعد ومعايير سيرورتها ككلّ نسقي، ناجمة عن علاقات الترابط والتنظيم الحاصلة بينها، كما يعرّف الناقد ذاته النسق في موضعٍ آخر على أنّه ذلك المنظور الثقافي، الذي تنظم فيه الخبرات الذاتية والفردية لجماعة معينة في عصر من العصور.

والنسق أيضا "مجموعة من القوانين التي تحكم بنية الظواهر، التي لا يستقيم عودها إلاّ بالارتكاز عليه، وهذا النسق يخضع بدوره إلى شروط موضوعية تتمثل في الجوانب الاجتماعية والثقافية والذهنية وحتى الاقتصادية" (يوسف، 2007، الصفحات 121-122)، أي يمكن القول إنّ النسق هو المتحكم في كلّ البنى، وكل الظواهر سواء الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها.

من خلال ما سبق يمكن القول إنّ النسق هو مجموعة من الأجزاء المترابطة والمتكاملة وجوديا، والمتكافئة وظيفيا، من خلال وجود منطق يجمع هذه الأجزاء ويربطها، فالنسق يحقق وجوده من خلال تكامل وظائف أجزائه، ويمكن إجمال خصائص ومميّزات النسق في النقاط التالية:

"- كلّ شيء مكوّن من عناصر مشتركة ومختلفة فهو نسق.

- للنسق بنية داخلية ظاهرة.
- للنسق حدود مستقرّة بعض الاستقرار يتعرف عليها الباحثون.
- للنسق قبول اجتماعي، لأنّه يؤدي فيه وظيفة لا يؤديها نسق آخر." (بلحاج، 2020، صفحة 07)

ويعتبر الناقد والسيميولوجي "يوري لوتمان" من النقاد الأوائل الذين أعطوا للنسق بعدا ثقافيا، حيث يعتبر النسق عنده مؤشرا "دالا على تاريخ الثقافة والأدب والفكر الاجتماعي بصورة عامة" (الكعبي، 2005، صفحة 22)، أي

أنّ الأنساق عند "يوري لوتمان" أصبحت مؤشرات دالة على الخصائص الكليّة والشاملة للثقافة الإنسانية، وذلك عن طريق تتبع تطورها وتحولاتها عبر العصور والحقب التاريخية المختلفة.

كما يعتبر الناقد "عبد الفتاح كليطو" من أبرز النقاد العرب الذين اهتموا بالأنساق الثقافية، وتطبيقها على الأشكال السردية، لاسيما جنس المقامة، والنسق عنده مواضعة اجتماعية، دينية، أخلاقية، إستيقية (جمالية)، تحقق التواصل بين المؤلف وجمهوره، فيلقى النسق قبولا ظاهرا معلنا أو ضمنيا مستترا، فالأنساق الثقافية نوع من المؤسسات ذات قاعدة اجتماعية، وهذا ما يجعل للنسق سلطة على الأفراد فيتحكم في تفكيرهم وسلوكهم وتوجهاتهم.

انطلاقا ممّا سبق يمكن القول أنّ الأنساق الثقافية هي نظم تكون كامنة في أية ثقافة من الثقافات، وتشمل هذه النظم شتى مناحي الحياة، وهي وثيقة الصلة بإنتاج الخطاب الإبداعي والفكري وطرائق تلقيه، أمّا إذا جئنا إلى مفهوم المقاومة، فإنّ الناقد الثقافي "لونيس بن علي" يرى بأنّها: "النضال ضد الإيديولوجيات، والممارسات الاستعمارية، بهدف استعادة ما أخذه المستعمر بالقوة، وتتحدّد المقاومة في فعلين: الفعل المسلّح، يعني المقاومة من خلال اللجوء إلى القوة والعنف، والمقاومة من خلال الفعل الثقافي والسيّاسي، التي تهدف إلى إعادة بناء الذات التي دمرّها الاستعمار" (لونيس، 2018، صفحة 321).

يقوم فعل المقاومة بحسب تعريف "إدوارد سعيد" على رسم خريطة الأرض الثقافية، كمرحلة تالية للمقاومة المسلحة، فالمقاومة المقصودة هنا تتم بوسائل ثقافية، وعلى رأسها السرد، وتهدف إلى استعادة الصوت المصادَر، من خلال فعل التمثيل بالنيابة من قبل الآخر المستعمِر، بعد أن حققت المقاومة المسلّحة النسق المتعلّق باستعادة الجغرافيات المنهوبة، ومن هنا ينبثق مفهوم الكتابة السردية المضادّة، أو السّرد المضاد الذي يتأسس "ككتابة تسعى إلى الردّ على الخطابات والتمثيلات التي فرضها في لحظة تاريخية معينة سياق تاريخي وثقافي اقترن بفعل الهيمنة في صوره المتعدّدة" (زعزاع، 2021، صفحة 92)، وهو بذلك استراتيجية تفكّك الصور النمطيّة المتحيّزة إيديولوجيا للمركزية الغربية، منطلقة من الوعي بأهمية امتلاك سلطة الكلمة والصوت والتمثيل للذات، وبذلك يغدو السرد المضاد شكلا من أشكال المقاومة الرمزية، التي لا تقلّ أهميّة عن المقاومة المسلّحة خاصة في وقتنا الحالي مع انحسار أشكال الاستعمار التقليدية، كما أنّ هذه المقاومة تقوم على منظومات خطابية وتمثيلية، حيث تغدو اللغة ونظامها التعبيري مسرحا لممارسة فعل المقاومة، مؤكدة على السلطة التمثيلية للسرد وبذلك يصبح التحدّي الأكبر لمثقفي الدول التي كانت من ويلات وتبعات الهيمنة الكولونيالية، التي لم تكن عسكرية استيطانية فحسب، بل كانت ثقافية أيضا هو بناء منظومة تمثيلية عن ذواتهم وعن الآخر، حتى يتمّ التحرر من الصورة التي اختزلهم فيها الآخر لقرون.

3. الرحلة في العصر الحديث خصوصية التشكّل لخصوصية الشرط التاريخي والحضاري:

لقد انتعشت الكتابات الرحلية في عصر النهضة بالنسبة للثقافة العربية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فأصبح لهذا الجنس الأدبي أعلام تمحورت كتاباتهم حول البحث عن سبب تخلف بلدان المشرق بغية اللحاق بمنجزات الحضارة الإنسانية، ونذكر من هؤلاء "على سبيل المثال لا الحصر "رفاعة الطهطاوي الأزهري" الذي رافق أول بعثة أرسلها "محمد علي باشا" للدراسة في فرنسا، ليكون واعضا وإماما لتلك البعثة، فكتب كتابه الشهير "الذائع الصيت"، وطُبِعَ أكثر مرّة، والمسمى "تخليص الابريز في تلخيص باريز"، والذي يمثّل رؤية شرقية عربية وإسلامية" (قرط، 2017، صفحة 167)، كما نجد أيضا رحلات الأمير "شكيب أرسلان" المسمّاة "الحلل السندسية في أخبار البلاد الأندلسية"، رحلة "أنيس منصور" "حول العالم في 200 يوم"، وكذا رحلات "أحمد فارس الشدياق" من خلال مؤلفه "كشف المخبأ عن فتون أوروبا".

لكن أدب الرحلة في العصر الحديث، صار يواجه تحديّات جديدة كجنس أدبي، انطلاقا من أنّ "نظرية الأجناس تؤكد أنّ بروز الأنواع الأدبية وتطورها وانحسارها، واختفائها رهين بجملة من الشروط التي تتحكم في واقعها ومآلها، فإننا نجد أنّ الرحلة قد تجددت في العصر الحديث بسبب عوامل كثيرة لعلّ أهمها تطور وسائل النقل، وانفتاح العوالم، ممّا دفع كثيرا من المثقفين في اتجاه المغامرة، بدوافع متعدّدة" (يقطين، 2019)، وكان من نتائج ذلك بروز كتابات كثيرة في الأدب العربي الحديث، تشكل تيمة السفر فيها عنصرا مركزيا، لكن تطور وسائل الاتصال والنقل في هذا العنصر، جعل عنصر تقديم المعرفة أو المعلومة ينحسر ويتراجع، مفسحا الطريق أمام ذاتية مبدِع الرحلة، لتكون أكثر حضورا وبروزا، ويشكل تثاقفها مع ثقافة المرتحل إليه، وموقفها مما تعاين وتشاهد الحاضر الأكبر في النص الرحلي.

كما كان من نتائج التصادم الحاصل بين الأنا العربية والآخر الغربي يتأثر من التجربة الكولونيالية والاحتكاك بهذا الآخر مواقف متباينة اتخذها المثقفون العرب منه، تراوحت بين الانبهار به، وبما حققته حضارته المادية من تطور علمي وعمراني، وبين التوعّي بمآثم وإمبريالية هذا الآخر، الذي حاول أن يرسم لنفسه عبر آليات وأدوات الثقافة صورة زائفة قوامها التفوق والإنسانية، الصورة التي تكذبها وقائع وويلات التجربة الاستعمارية التي عانت منها شعوب العالم الثالث، والتي كان هذا الآخر فاعلها الأساسي.

هكذا إذن يبدو أنّ أدب الرحلة جنسا أدبيا مرنا، يعيد تحديد وظائف عناصر تبعا للظروف الخارجية المحيطة بإنتاجه، والمتحكمة في تلقيه، ليبقى على شرعية تواجده كجنس أدبي له قراؤه والمهتمون به.

4. نص "الرحلة" لـ: "رضوى عاشور": إعادة تشكيل السياق لفهم خصوصية الطرح ومبررات الخيارات الاستراتيجية للتعاطي مع الآخر:

لقد كان لتنامي المد التحرري في ستينات وسبعينات القرن الماضي أثره على مثقفي الدول العربية، الذي راح فريق منهم يتبنى النهج الماركسي الداعم لحركات التحرّر، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، والدفاع عن الحقوق

العمالية، والسعي لتحقيق العدالة الاجتماعية، والإيمان بحلم الوحدة العربية والقومية العربية، والتعاطي مع قضايا الأمة العربية باعتبارها جسدًا واحدًا، وإذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وصاحبة المدوّنة –محل دراستنا- مثقفة من هذا الجيل الذي وعى مبكرا بأن رحلة التحرّر لن تكتمل إلاّ بتحرير الكلمة، وبأن النضال من أجل العدالة الاجتماعية والحريات مهمّة المثقف المنشغل بقضايا مجتمعية، والمنخرط في هموم واقعه، وهو المثقف العضوي في مفهوم "غرامشي" و"إدوارد سعيد" لاحقا.

تأتي رحلة "رضوى عاشور" التي تدوّن وقائعها في نص "الرحلة" إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإعداد رسالة الدكتوراه عن خصوصية الأدب الأفرو-أمريكي، وقد أقدمت "رضوى عاشور" على السفر إلى هذا البلد بإشارة من الكاتبة الأمريكية السوداء "شيرلي جراهام دييوا"، التي زكّت لها قسم الدراسات الأفروأمريكية ذي التوجه التحرري لإرادته وهيئة تدريسه، كما أنّ موضوع بحثها في الدكتوراه يندرج ضمن همّ أكبر لرضوى عاشور، وهو الانشغال بعلاقة الأدب بواقع النضال الشعبي؛ تقول "رضوى" في "الرحلة": "إنّني أريد دراسة الأدب الأفروأمريكي كجزء من انشغالي بعلاقة الأدب بواقع النضال الشعبي، وإنني أدرّس في قسم الأدب الإنجليزي، ولكنني لا أريد التورّط في بذل سنوات من العمر والجهد في دراسة لا تدخل في نطاق همومي الملحّة، والقضايا الأكثر إلحاحا لواقعنا الثقافي" (عاشور، 2015، صفحة 11).

يظهر جليا من المقطع أعلاه أنّ "رضوى عاشور" من المثقفين الملتزمين الذين يعتبرون جهودهم في شتّى المجالات التي ينشغلون عليها، يجب أن تصبّ في همومهم الفكرية، والتي تصرّح بأنّها النضال من أجل الحريّات والعدالة الاجتماعية.

هكذا تضطر "رضوى عاشور" للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإعداد رسالة الدكتوراه، وتقرّر أن تدوّن وقائع هذه الرحلة، ويومياتها هناك ومشاهداتها ومعاينتها، أقول تضطرّ لأن تصرّح بذلك في "الرحلة" بأنّها لم تكن قد أتت إلى الولايات المتحدة الأمريكية رغبة في الدراسة فيها عموما، ولكن لاهتمامها بموضوع بعينه هو الأدب الأمريكي الأسود الذي خاض كتابه رحلة نضال وكفاح مرير ضد العبودية والتمييز العنصري في أمريكا الإمبريالية. (عاشور، 2015، صفحة 10)

5. نسق المقاومة وتجلّياته:

يتضح ممّا سبق أنّ توجه "رضوى عاشور" إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كان لدواعي علميّة معرفيّة بحتة، تتمثل في إعداد رسالة الدكتوراه حول خصوصية الأدب الأفروأمريكي، كما أنّه كان توجها مصحوبا بخلفية وموقف مسبقين من هذا البلد، ممّا جعلها تنفي عن نفسها الحياد مسبقا ومنذ بداية الرحلة في علاقتها به، حيث أنّها تعتبره إمبرياليا بامتياز فتقول: "كرفاعة كنت في طريقي إلى بلاد بعيدة غاية في الابتعاد **لتحصيل المعارف**، ولكنّي لم أكن مثله ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئا ممّا هو مقبل عليه، ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحوا وعادوا مدلهين في عشق الأنوار الإمبريالية" (عاشور، 2015، صفحة 06).

يبدو واضحا ممّا سبق أنّ خيار المقاومة لدى "رضوى عاشور"، هو همّ فكري يؤطر جهودها كمثقفة عضوية منخرطة في انشغالات وهموم واقعها، ويلقي بظلاله لا محالة على نص "الرحلة"، فيغدو نسقا كامنا في تضاعيف النص، متبدّيًا في أنساق فرعية تتلاحم فيما بينها، لتشكل تجليّا رمزيا لمفهوم المقاومة الثقافية، ويمكن تقسيم هذه الأنساق على سبيل التبسيط فقط، لأنّها مترابطة فيما بينها ترابطا عضويّا، ومتداخلة حتى لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر في الإطار الأعم وهو فكر وهموم "رضوى عاشور" النضالية، لكن مع ذلك يمكن تقسيمها في نظري إلى ثلاثة أنساق رئيسيّة:

1.5. نسق التوعّي بإمبريالية أمريكا:

إذا كانت "رضوى عاشور" قد قصدت الولايات المتحدة على خلفيةٍ من موقف صريح بمعاداة إمبريالية أمريكا، فإنّ هذا الموقف قد تعزّز بالمعرفة بعد شروعها في بحث موضوعها في الدكتوراه عن الأدب الأفروأمريكي، وقراءاتها عن رحلة العبيد القسرية من إفريقيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تقول: "أخذت أقرأ بنهم في التاريخ وفي الأدب، أدخل مساحات من المعرفة تثقل القلب، وأحيا من جديد آلام سيّدة الآلام إفريقيا النازفة عبر مئات السنين، أربعون مليونا منها يشحنون في السفن، هم البضاعة وهم الحمولة عند هذه القلاع على شواطئها الغربية يختمون، تكدّسُ السفن بهم إلى وجهتها في عالم جديد يبدأون أيّامهم فيه على خشبة المزاد العلني، بيع وشراء، مال وبضاعة، تتحرك الآلة تسّلع وتنتج، عبيد كثر يفلحون أرضا، سيّد في بيت أبيض مرفوع على عمد، مساحات تترامى من تبغ وقطن وقصب السكر، آلة بتلع العمر وتدور." (عاشور، 2015، صفحة 25)

وإن كانت هذه الصورة موجعة ترسمها "رضوى عاشور" لمأساة الأفارقة الوافدين على الولايات المتحدة الأمريكية، فإنّ مآثم الغزاة مع السكان الأصليين للأرض لا نقل عنها فداحة، وهو ما تصنعها الكاتبة في سياقه التاريخي، من خلال حديثها عن المحاضرة التي حضرتها لقائد هندي من السكان الأصليين عن الخروقات المتكررة للولايات المتحدة الأمريكية للاتفاقيات المبرمة بينها وبين الهنود، كما تتحدث أيضا عن استمرار الأصلانيين في التمسك بخيار النضال والمقاومة، ولو حتى بمجرد ضمان استمرار نسلهم الذي سعت أمريكا إلى إبادته "قال الرجل النحيل وعلى شفتيه شيء من ابتسامة: لقد أنجبت ثلاثة عشر طفلا... هذه أيضا قد تكون طريقة للمقاومة" (عاشور، 2015، صفحة 109)، تزيد المعرفة ويزيد معها الاقتناع بالطابع الإمبريالي لأمريكا التي لا تعدّ مآثمها، ففي موضع آخر من "الرحلة" تضعنا "رضوى عاشور" أمام أيادي أمريكا الملطخة بدماء الأبرياء من خلال حديثها عن مذبحة الملعب الرياضي في شيلي عقب انقلاب بينوشيت العسكري على حكومة آيبندي المنتخبة، تقول: "خمسةُ آلاف حُشِروا بالملعب الرياضي انتظارا للمذبحة التي راحت تمتد بعد ذلك بطول البلاد، ولم يكن دور الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المذابح ليخفى على أحد (عاشور، 2015، صفحة 83)".

كما يشير سقوط "سايجون" الفيتنامية في يد الثوار حماس "رضوى عاشور" التي تستحضر مع هذا الموقف مآثم أمريكا في فيتنام، لتعبر في زهو عن فرحها لانتصار النضال التحرري هناك قائلة: "سقط العلم الأمريكي وسط أنقاض الحرب الفيتنامية، وكان على المؤسسة أن تنكر تلك الصورة، وأن تقدم بدائل لها ترضي الغرور الوطني، وتكرس الأوهام عن الذات، هكذا راح الإعلام يتغنى بأمريكا الجميلة، وبحلمها النبيل وبالأم الإمبريالية العطوف، وإن رد لها بعض أبنائها عطاءها جحودا." (عاشور، 2015، صفحة 115)

هكذا يكون التوعي بإمبريالية أمريكا حاضرا في الرحلة من خلال استحضار مآثمها عبر محاطات تاريخية مختلفة، ورقع جغرافية متباينة داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية، محطات وأماكن تبقى شاهدة على الأيدي الملطخة بالدماء لأمريكا الحريات.

2.5. نسق النضال السياسي:

يمكن القول بأنّ نسق النضال السياسي، يدخل ضمن هموم المثقف العضوي، الذي تمثل "رضوى عاشور" صورة متكاملة له، ويتجلى هذا النسق من خلال نص الرحلة في ملمحين رئيسيين:

أ- الهموم النضالية الداخلية لـ"رضوى عاشور" ضمن الشأن المصري، والتي تطل علينا عبر نافذة الذاكرة المشرعة على الوطن، لأنّه لا يحضر في النص إلاّ عبر هذه النافذة، أو منقولة أخباره عن طريق الإعلام، أو عن طريق رسائل زوجها "مريد البرغوثي"، وقد تراوحت الاهتمامات السياسية لـ"رضوى عاشور" بين الاهتمام بالنضال الطلابي، ومساندة مطالبهم ومساعيهم، والوقوف إلى جانب المعتقلين، كما في قولها: "وفي ساعة كهذه أيضا من يوم آخر كنّا نقف سايان وأنا، أمام الموظف المسؤول بمكتب البريد المركزي شارع عدلي، لكي ترسل برقيات إلى رئيس الجمهورية، ورئيس المجلس الشعبي ورئيس الوزراء احتجاجا على اعتقال الطلاب باسم نخبة الكتاب والفنانين المصريين" (عاشور، 2015، صفحة 07).

فتظهر الكاتبة هنا كمناضلة سياسية تتخذ مواقف من الاعتقالات التي تطال الطلاب، وتوصل صوتها الرافض لهذه الانتهاكات إلى السلطات العليا في البلاد.

وفي موضع آخر، وعبر نافذة الذكريات دائما، تطل علينا المناضلة "رضوى عاشور" المهتمة بشؤون النقابات العمالية، ممّا يجعلنا نشمّ رائحة توجّه يساري اشتراكي، تقول في الرحلة: "تركت القاهرة تغلي، افتتح عُمَّال حلوان العام الجديد بمظاهرات صاخبة في ميدان التحري، وقصر النيل وباب اللوق احتجاجا على تردي الأوضاع الاقتصادية، لقد قبضوا على العديد من العناصر الديمقراطية ومازالت الحملة مستمرة، حتى إنّ أحد معارفي التقى بي صدفة قبل مغادرتي بيومين فقال ساخرا: "ما دمت مسافرة فماذا تنتظرين؟ أن يقبض عليك أو لا؟"" (عاشور، 2015، صفحة 98)، كما يبدو أنّ الروائية كانت في بلدها مصر معرّضة للاعتقال، نظرا لانخراطها في النضال من أجل تحسين الأوضاع الاقتصادية، واحترام الحريات الديمقراطية.

ب-الهموم النضالية الإقليمية والإنسانية لـ"رضوى عاشور" من خلال "الرحلة": رغم أنّ رحلة "رضوى عاشور" إلى الولايات المتحدة الأمريكية كانت لأجل إنجاز رسالة الدكتوراه، إلاّ أنّها لم تكتفِ بذلك لأنّ المثقف لا يستطيع العيش دون التفاعل مع محيطه، لذلك نجدها تنقل همومها النضالية إلى الولايات المتحدة، وتحديدا إلى الجامعة التي انتسبت إليها، لاسيما مع تعلّق بمناهضة الصهيونية ومساندة القضية الفلسطينية كهمّ مركزي لدى كاتبتنا: "كان عددنا قليلا، فقررنا تشكيل لجنة لا تقتصر علينا، بل يسهم فيها كلّ من يرغب من طلاب الجامعة ... وبهذا اكتسبت "لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني والعربي" مكانتها بين نشاطات طلاب العالم الثالث داخل الحرم الجامعي" (عاشور، 2015، صفحة 29)، ومرّة أخرى تطلّ علينا رضوى الشابة المقاومة لكلّ أنواع الاستعمار لاسيما الكيان الصهيوني ككيان استيطاني لا كمعاداة للسياسية، والمساندة لتحرر الشعوب من كلّ آثار الاستعمار.

3.5 . نسق الأنثى المتمرّدة على النسق الذكوري:

إنّ هذا النسق يتبدى حتى في النسقين السابقين على اعتبار أنّ المجتمعات الذكورية يحتكر فيها الرجل حتى مجال السياسة والنضال الشعبي رغم مزاعم التقدمية والتحرر، لكنّ نسق الأنثى المتمرّدة يطلّ علينا في نص الرحلة ليرسم ملامح الطفلة الشجاعة التي تغالب الخوف الذي عادة ما ينسب للمرأة، تقول: "منذ طفولتي المبكرة رحت أغالب الخوف، وأخرج من كل جولة معه رافعة رأسي في اعتداد طفولي جميل.... من الشجاعة الأدبية والإقدام." (عاشور، 2015، صفحة 33)

يظهر المقطع الشجاعة الأدبية التي تتحلى بها "رضوى عاشور" الطفلة، لكنّها صورة رمزية ترسم من خلالها الكاتبة ملامح امرأة متمرّدة، تحاول الخروج عن التنميطات التي تلحق عادة بالمرأة، لمجرّد كونها امرأة، ويأتي شعور الخوف هنا رمزا لكلّ الأشياء السلبية التي يلحقها المجتمع بالمرأة بإيعاز من سطوة المجتمع الذكوري، لأنّ الخوف من حقيقة الأمر شعور إنساني ينتاب الرجل والمرأة على حدّ سواء.

لقد كانت حياة "رضوى" كلّها كما تقدمها لنا من خلال نص "الرحلة" نضالا لا ينتهي من أجل إثبات أنّ الأنثى تصلح لشيء آخر غير بيت الزوجية، تنميطات اجتماعية تصنع المرأة في خانة الزوجة، ولا ترى لها أي دور خارجه، فحتى جدتها وهي امرأة مثلها تدعو لها قائلة: "روحي يا رضوى يا بنتي إلهي يرزقك بعريس الغفلة والباب بلا قفلة" (عاشور، 2015، صفحة 163)، وأستاذ الرياضيات الذي يرى أنَّ أقصى طموح للمرأة الحصول على الشهادة الإعدادية لتحملها معها إلى بيتها الزوجية، لذلك تكون رحلة التعلّم عند "رضوى عاشور" تمرّدا على هذه التنميطات، وخروجا عن الإطار الذي يحاول المجتمع بنسقه الذكوري المهيمن حصرها ضمنه بين مهمتي الزواج والإنجاب.

لقد كانت "رضوى عاشور" في نهاية رحلتها التعليمية، عند حصولها على درجة الدكتوراه، لا تشعر بفرحة الحصول على هذه الدرجة العلمية فحسب، بل تشعر أيضا بنشوة الإفلات من الحرملك المنتظر، تقول: "ابتسمت لآلة التصوير ولفكرة أنني وأنا أغدو خائفة من كلمات الأستاذ والحرملك المنتظر قد نجحت مرة أخرى في قفز حاجز وأفلتُ" (عاشور، 2015، صفحة 163).

هكذا تكلل رحلة "رضوى عاشور" إلى الولايات المتحدة بالحصول على درجة الدكتوراه، وهي رحلة ذهبت فيها إلى هذا البلد متسلحة بوعيها العميق بإمبرياليته فلم تقع في شرك الانبهار بمنجزات الحضارة الغربية والتغاضي عن مآثمها، وبقيت وفية لهمومها كمثقفة منشغلة بقضايا وطنها مصر وأمتها لاسيما فلسطين والعالم أجمع، مناهضة للاستعمار بكلّ أشكاله، ومساندة لكلّ الشعوب الساعية إلى التحرر من قيود الاستعمار.

6 . خاتمة

وفي نهاية هذه الورقة البحثية نخلص إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- يعدّ النص الرحلي نصا منفتحا وعصيا على التحديد المفاهيمي نظرا للتداخل الأجناسي لمكوناته اللغوية وغير اللغوية.
- لقد عرفت الرحلة العربية الحديثة تراجع عنصر المعرفة فاسحا المجال للإفصاح عن محصلة تثاقف بين المرتحِل والمرتحَل إليه.
- يكتسب النص الرحلي مرونة بنائية وموضوعاتية، تجعله قادرا على التكيّف مع معطيات الظرف التاريخي والحضاري لإنتاجه، من خلال إعادة ترتيب عناصره وجعل الهيمنة للعنصر المناسب لمتطلبات انتاجه.
- ثراء النص الرحلي جعله مادة دسمة، يمكن تطبيق مقولات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي عليها نظرا لمحورية الذات المنشئة للنص الرحلي في تفاعلها مع الآخر المرتحَل إليه.
- لقد تناغم نص رحلة طالبة إلى أمريكا لرضوى عاشور مع سياق إنتاجه المتسم بتنامي المد التحرري والمسعى النضالي المقاوم للهيمنة الإمبريالية.
- لقد شكل نسق المقاومة، نسقا كامنا ارتكز عليه نص الرحلة في انبنائه وتجلّى في أنساق فرعية تمثلت أساسا في:
  - نسق التوعّي بإمبريالية أمريكا.
  - نسق النضال والمعارضة السياسية
  - الأنثى المتمردة على كليشيهات المرأة الموضوعة من قبل المجتمعات الذكورية.

5. قائمة المراجع:

- الخضراوي إدريس (2019)، العربي ناظرا.. عبد الرحيم مودن وجهوده بدراسة الرحلة، (26/12/2024) https://diffah.araby.co.uk

- أبو قرط، طيب. (2017) *أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي – قراءة في الإشكالات والآفاق، مجلة تاريخ العلوم*، المجلد 03 (06) (166- 175) https://asjp.cerist.dz/en/article/12191

- أحمد، يوسف.(2007) *القراءة النسقية – سلطة البنية ووهم المحايثة* (ط01). لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون.

- الساوري، بوشعيب.(2007) *الرحلة والنسق –دراسة في انتاج النص الرحلي* (ط01). المغرب: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

- الكعبي، ضياء.(2005) *السرد العربي القديم – الأنساق الثقافية واشكالية التأويل* (ط01) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- بلحاج، ربيحة.(2020) *النص والبنى الثقافية في أدب الرحلة عند الحسين الورثيلاني* (أطروحة الدكتوراه، أدب عربي، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب، الجزائر)

- بن علي، لونيس. (2018) *إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية* (ط01) الجزائر: دار ميم للنشر.

- زعزاع، أحمد. (2021) *المحكي التاريخي واستراتجيات المقاومة الثقافية في رواية ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور. مجلة الآداب*، المجلد 21 (01)، (91- 104)، https://asjp.cerist.dz/en/downArticle/62/21/1/170681

- عاشور، رضوى. (2015) *الرحلة*، مصر: دار الشروق.

- محمد عبد الله (2024)، أدب الرحلات.. تجوال مغامرة نحو التثاقف والمعرفة، https://www.aljazeera.net (26/12/2024)

- يقطين سعيد، (2019)، أدب الرحلة العربي الحديث، (2024/12/30) https://www.alquds.co.uk